المحاضرة الرابعة: عبد المالك صياد

المولد والنشأة: بدايات واعدة في بيئة ريفية

وُلد عبد المالك صياد عام 1933 في قرية **أغبالة (سيدي عيش)** بمنطقة **القبائل الصغرى** .كان الابن الذكر الوحيد في عائلة تتكوّن من خمسة أطفال، ما منحه مكانة خاصة داخل أسرته. تلقّى تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى بجاية لمواصلة دراسته الثانوية. بفضل تفوقه الأكاديمي، التحق بمعهد بوزريعة في الجزائر العاصمة، حيث خضع لتكوين مهني في مجال التدريس، ليتم تعيينه لاحقًا معلمًا في مدرسة بحي **بربروس** في **القصبة**، أحد الأحياء العريقة للجزائر العاصمة.

رحلته الأكاديمية ولقاؤه الحاسم مع بيير بورديو:

رغم انخراطه في مجال التعليم، لم تتوقف طموحاته عند هذا الحد؛ بل استمر في دراسته الجامعية، حيث كان لقاؤه مع عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو نقطة تحول مهمة في مسيرته الأكاديمية. لم يكن هذا التعاون مفيدًا لصياد فحسب، بل أثر أيضًا على بورديو، الذي وجد في صياد مفتاحًا لفهم المجتمع الجزائري، وخاصة بنية المجتمع القبائلي. وقد كان لهذا التفاعل تأثير كبير في تشكيل بورديو لعدد من المفاهيم السوسيولوجية الأساسية. ، مثل **"الهابيتوس" و"الحقل** *(l'habitus et le champ)*. "

لقد أقرّ العديد من الباحثين بأن الانتشار العالمي لأفكار بورديو لم يكن ليصل إلى هذا الزخم لولا مساهمات صياد، خاصة من خلال الدراسات الإثنولوجية التي قام بها حول الجزائر. ومن جانبه، استفاد صياد من الإطار النظري والمنهجي لبورديو، مما ساعده على تطوير مقاربته الخاصة لدراسة قضايا الهجرة، الاغتراب، والهوية.

الانتقال إلى فرنسا والانخراط في البحث العلمي:

بعد استقلال الجزائر في عام 1962، قرر عبد المالك صياد أن يستقر في فرنسا في عام 1963. هناك، انضم إلى مركز السوسيولوجيا الأوروبي التابع لمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية (EHESS) كمتعاقد باحث. وفي عام 1977، أصبح جزءًا من المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS)، حيث تولى لاحقًا منصب مدير الأبحاث في علم الاجتماع. استمر في نشاطه العلمي حتى وفاته في 13 مارس 1998، تاركًا وراءه إرثًا بحثيًا غنيًا يتضمن مؤلفات ومقالات منشورة وغير منشورة، بالإضافة إلى مخطوطات ومقابلات بحثية فريدة.

أبحاثه حول الهجرة والهوية: من الهجرة إلى الاغتراب

بدأ عبد المالك صياد رحلته البحثية بالتركيز على التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الريف الجزائري، لكنه سرعان ما وسع نطاق أبحاثه لتشمل قضايا أكثر عمقًا، مثل الهجرة الجزائرية إلى فرنسا. وقد كتب مقالًا محوريًا بعنوان "الأعمار الثلاثة للهجرة الجزائرية إلى فرنسا"، الذي أصبح حجر الزاوية لمشروع بحثي شامل حول الهجرة والاغتراب. في هذا الإطار، سعى صياد إلى تحليل المسارات المختلفة للهجرة الجزائرية، متتبعًا كيف يتكيف المهاجرون مع بيئة الاستقبال دون أن يفقدوا ارتباطهم بوطنهم الأصلي، وهي ثنائية أثارت الكثير من الجدل في الأوساط الأكاديمية.

مفهوم "الغياب المزدوج": أزمة الهوية بين الوطن والمهجر

كان عبد المالك صياد من أوائل الذين انتقدوا النظرة السطحية تجاه المهاجرين، التي غالبًا ما تختزلهم في صورة "قوى عاملة" أو "مواطنين مغتربين". بدلاً من ذلك، قدم تحليلًا أكثر عمقًا، مشددًا على أن المهاجر يعيش حالة من "الغياب المزدوج":

1. غياب عن الوطن الأصلي: حيث لم يعد يحتل نفس المكانة التي كان يشغلها سابقًا.

2. غياب عن المجتمع المستقبل: إذ يُنظر إليه كعنصر دخيل، مما يجعل من الصعب إدماجه بالكامل.

في كتابه الشهير "الغياب المزدوج"، الذي قدّم له بورديو، جمع صياد مجموعة من الأبحاث والمقالات التي استخدم فيها المقابلات البحثية كأداة لفهم تعقيدات الهجرة والهوية والانتماء. وقد اعتبر الهجرة ظاهرة اجتماعية متعددة الأبعاد، وليست مجرد انتقال جغرافي من بلد إلى آخر.

إسهاماته المنهجية: إعادة تعريف علم اجتماع الهجرة

عبد المالك صياد أحدث تحولًا كبيرًا في دراسة الهجرة، حيث قام بما يلي:

1. نقد الدراسات التقليدية: التي كانت تركز فقط على كيفية اندماج المهاجرين في المجتمع الجديد، دون أن تأخذ في الاعتبار علاقتهم بالمجتمع الأصلي.

2. إعادة تعريف المفاهيم: حيث ميز بين "الهجرة" و**"الاغتراب"**، مشددًا على العوامل النفسية والاجتماعية التي تؤثر على تجربة المهاجرين.

3. تحليل المجتمع الأصلي: أكد أن فهم الهجرة يتطلب دراسة الأسباب التي تدفع الأفراد للهجرة، مثل تفكك البنية الريفية في الجزائر خلال فترة الاستعمار.

4. تصنيف مراحل الهجرة: حدد ثلاث مراحل رئيسية:

- هجرة الحفاظ على الجماعة (هجرة مؤقتة تهدف إلى دعم العائلة).
- هجرة تحقيق الذات (بحث الفرد عن فرصة اقتصادية أو اجتماعية).
- هجرة الاستقرار (قرار البقاء النهائي في البلد الجديد).

5. إبراز الأبعاد السياسية: أظهر كيف ساهمت الهجرة في تشكيل الحركات النقابية والسياسية، مؤكدًا دورها في تشكيل وعي المهاجرين وهويتهم.

6. نقد التمركز الأوروبي في الدراسات السابقة: رفض النظريات التي كانت تنظر إلى الهجرة من منظور البلد المستقبل فقط، داعيًا إلى مقاربة أكثر شمولية.

التأثير العلمي وإرثه الأكاديمي:

تظل أبحاث عبد المالك صياد مرجعًا أساسيًا في مجال دراسات الهجرة، حيث تم استخدام منهجيته في تحليل هجرات أخرى، مثل الهجرة التركية إلى فرنسا، التي تناولتها الباحثة داريا فرات من خلال نفس الإطار النظري في كتابها "الأعمار الثلاثة للهجرة التركية إلى فرنسا".

أما بالنسبة للتكريم والاعتراف بإنجازاته، فقد حظي إرثه الأكاديمي باهتمام متزايد بعد وفاته، حيث:

- تم تأسيس "جمعية أصدقاء عبد المالك صياد" في فرنسا عام 1999 بهدف نشر أعماله.
- أُطلق اسمه على مؤسسة تعليمية في نانتير تكريمًا له.
- في الجزائر، تم إنشاء "الجمعية الثقافية والعلمية عبد المالك صياد" عام 2008 في مسقط رأسه.
- كما نظم المركز الوطني للبحث ما قبل التاريخ عدة ملتقيات علمية لمناقشة أعماله حول الهجرة الجزائرية.

صياد وإعادة تعريف المهاجر:

يُعتبر عبد المالك صياد واحدًا من أبرز علماء الاجتماع الذين أعادوا تعريف مفهوم الهجرة. لم يعد المهاجر مجرد عامل مغترب، بل أصبح جزءًا من ظاهرة اجتماعية شاملة تتداخل فيها عوامل الهوية والانتماء والسياسة. تظل أعماله مصدر إلهام للباحثين، حيث يؤكد أن الهجرة ليست مجرد انتقال، بل هي تجربة إنسانية معقدة.